أ.د. ياسر إبراهيم الملاح

فلسطـــــــــــين

مِنْ سَدَنَةِ الْعَرَبِيّةِ الخالِدِينَ ... الْعَلاّمَةُ مُحَمّدُ بْنُ مَكْرَمِ الْأَفْرِيقِيّ (ـ شَعْبان 711هـ)

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي التاسع للغة العربية

المنعقد في دبي من 2023/11/6م وفق 22/جمادى الأولى/1445هـ

بيت لحم / فلسطين

1445هـ / 2023م

مِنْ سَدَنَةِ الْعَرَبِيّةِ الخَالِدِينَ : الْعَلاّمَةُ مُحَمّدُ بْنُ مَكْرَمِ الْأَفْرِيقِيّ (ـ شَعْبان 711هـ)

1) المُقدِّمة :

كان للعرب والمسلمين باع طويلة في الدراسات اللغوية العربية. وقد سارت هذه الدراسات من صناعة المادة اللغوية نفسها ، أي صناعة الأصوات والألفاظ والجمل والمعاني ، والحياة الأدبية من شعر بأنواعه ونثر ومجالاته. ثم نزل القرآن الكريم تاجا عزيزا مدهشا وملهما لهده الصناعة ، ثم تلاه الحديث النبوي الشريف فكان درة من درر البيان الجميل ونبعا من ينابيع الفصاحة التي لا يُشق لها غبار. وقد شكلت هذه القاعدة القوية من المادة اللغوية أساسا مُلهما لكل النشاط اللغوي الذي بُني في الثقافة العربية : اللغوية وغير اللغوية ، عبر العصور المتلاحقة من حياة العرب والمسلمين حتى يومنا هذا.

ومن مرحلة صناعة اللغة وأفنانها إلى فن جمع المادة اللغوية واختزانها بأساليب مُختلفة وَفق فنون اللغة من أصْوات ومُفردات وتراكيب ومَعانٍ وبلاغة ومعاجم وتصنيف في مختلف أنواع العلوم والآداب.

وقد كان النشاط اللغوي المُعجمي من أشهر الأنشطة اللغوية العربية التي اتضحت في الحقل اللغوي العربي على مدى العصور المتلاحقة في تاريخ الدراسة اللغوية العربية منذ العصور الأولى حتى يومنا هذا. وقد أطلقوا كلمة مُعجم على أي كتاب مرتب هجائيا ، وتفيد مادة (عجم) في اللغة الإبهام والغموض ، ففي اللسان : " العُجم والعَجم خلاف العُرب والعرب... والأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب ... ورجل أعجمي وأعجم إذا كان في كلامه عُجْمة ... وكلام أعْجم وأعْجمي بيّن العُجْمة... وفي التنزيل " لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين " (النحل 103) . وبلاد العجم أطلقوا عليها هذا المُصطلح لأن لغتها غير واضحة ، وغيرُ مفهومةٍ لهم . ولفظ المُعجم في اللغة العربية يدل على الكتاب الذي يجمع كلمات لغة ما ، ويشرحها ، ويوضح معناها ، ويرتب هذه الكلمات وفق منهج مُعين. وتجمع كلمة معجم على مُعْجمات ، ويتردد بعض اللغويين في جمعها على معاجم لأن الأولى أفصح . ومن شروط المعجم **الشمول** ، وهو أمر نسبيّ يتفاوت فيه المشتغلون بالمعاجم ، و**الترتيب** ، وهو ما لا مفر من وجوده ، وإذا فقد لم يعد المعجم معجما. ومن الشروط كذلك بيان كيفية نطق الكلمة إما بوضع الحركات أو بالنص على نوع الحركة كأن يقولوا : بفتح أو بضم كذا أو بسكون كذا. ويشيع بين الناس مصطلحان هما : القاموس ، وهو يعني لغة : قعر البحر، ويرجع شيوع هذا المصطلح إلى الفيروزابادي من القرن الثامن الهجري الذي سَمّى المعجم الذي ألفه بـ (القاموس المحيط) وهو وصف لمعجمه بأنه بحر واسع أو عميق.

ولا نعرف أمّة من الأمم في تاريخها القديم والحديث قد تفننت في أشكال معاجمها وطرق تبويبها كما كان من العرب. وقد كانوا دقيقين بملاحظة وجهي الكلمة من حيث الشكل والمضمون ، فكان لديهم :

1) معاجم للألفاظ ، و 2) معاجم للمعاني.

ونحن مُهتمون في هذه الدراسة بالمعاجم اللفظية ، ولعل معجم (لسان العرب) هو خير مثال على هذا النوع ، وهو أضخم معجم كتب في تاريخ العربية وألفاظها. وقد طبع في العصر الحديث في بولاق بمصر في عشرين مجلدا عام 1299هـ إلى عام 1308 هـ كما ورد في دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الأول ص 285) . ثم توالت طبعاته فكان لدينا آخرها الذي صدر عن دار الفكر ودار صادر ببيروت ، وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة.

2) الثقافة العربية ونضج الحضارة العربية:

كانت إشراقة شمس الإسلام على مكة المكرمة ، قلب الجزيرة العربية ، بل قلب هذا الكون المنظور ، إيذانا بميلاد حضارة جديدة في هذا الكون. وقد شرّف الله العرب والعربية بحمل وزر أو بتجشم أعباء بناء هذه الحضارة ، وتزويدها بما يلزمها من أدوات . وما دام رب الكون ، سُبْحانه وتعالى ، قد كلف هذه الأمة بنشر هذه الحضارة بين العالمِين لتكون مَنارة هداية ، وأداة إنقاذ لهم من المصير الذي لا يُحتمل ، واستجاب الرسول العظيم مُحمّد ، صلى الله عليه وسلم ، لحمل أعباء نشر هذه الرسالة ، فلا مَناص من أن تستعد هذه الأمة لما استجاب له رسولُها الكريم . ولكل حضارة أدوات تحمل بها وفيها قيم هذه الحضارة لنشرها بين الناس. ولا رَيْبَ في أن اللغة أهم أداة لحضارة تسعى إلى زراعة قيمها في المدعوين للاستجابة لهذه الحضارة وقيمها. ومن قريب رأينا رأي العين كيف أن الإنجليز نشروا لغتهم في العالم ، فأصبحت ، بعد جهد بذله أهلها ، وإن كان بعض هذا الجهد شرا واستعمارا ، لغة عالمية لا يكاد يستغني عنها لسان في عالمنا المعاصر.

ومعروف أن لكل لغة أدواتها التي تحافظ بها على شخصيتها ، وعلى كنزها الثمين من الكلمات والمفردات ، واكتشفت الإنسانية الطريقة المعجمية لحفظ جواهرها اللفظية التي بدونها لا تكون هناك شخصية لغوية دائمة الحضور في حياتها. وهكذا استجاب العرب لهذه الطريقة فكانت فكرة صناعة المُعْجمات العربية مَعلما كبيرا من معالم نضج هذه الحضارة واستيفاء شروط هذا النضج.

والمُتمعن ، في هذا الأمر ، يجد أن من ساعد على توسع ظاهرة صناعة المعاجم تَعَرّب شعوب كبيرة الحجم تعرُّبا تاما اتخذوا فيه العربية لسان خطاب ودين وعلم. ولذلك كان تعرُّبهم ، وانكبابُهم على العربية انكبابا مُدهشا ، بفضل إسلامهم وبفضل القرآن . ومن هنا كانت المقولة التي تذهب إلى أن غير العرب الذين دخلوا في دين الله أفواجا هم أنفع للعربية من العرب ، أصحاب هذه اللغة ، مقولة صحيحة بقوة وامتياز. فالإسلام وسّع دائرة الانتماء إلى العربية توسّعا لا حدود له لربطه إياها بالقرآن والدين إذ لا تقبل صلاة إلا بالعربية. وقد كانت هذه الظاهرة إغناء كبيرا لمسألة صناعة المعاجم اللغوية ، ولا عجب إن كان معظم من ولج باب الصناعة المُعجمية كانوا من الأمم التي اتخذت الإسلام دينا ومنهج حياة.

وعلى الرغم من التألق والاحترام الذي حظيت به القرون الأولى في تارخ الإسلام ، كالعصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعبّاسي ، إذ كان لها شرف البناء والتأسيس للحضارة العربية الإسلامية ، وعلى الرغم من تألق فرسان البيان والأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية المُختلفة في هذه القرون الأولى ، بحيث لا يستطيع أي دارس لهذه الحضارة وأساطينها الفكرية أن يُهمش عظمة دورهم في البناء والتأصيل ، فإنه يبقى لهذه الفترة التي نتحدث عنها ، أي فترة تعرب

شعوب كثيرة ، لدخولها في الإسلام واتخاذهم العربية لغة انتماء حضاري ، تألق خاص لأن معظم فرسانها من العلماء والكتاب كانوا من غير العرب ، من ناحية الدم والعرق ، وإنما كانوا عربا بتعرّبهم الواسع ، وبهذا الامتزاج الدموي والفكري بين مختلف الأعراق التي كانت تحت الراية الإسلامية فقط غير ملتفتين إلى تلك الأصول التي انحدروا منها.

ولو شئت أن أسرد لك من الأسماء التي تمثل نجوم هذه الظاهرة ودُررها لذكرت لك الكثير الكثير ، غير أني سأكتفي بذكر بعض الأسماء التي لها حضور مميز في ذاكرتنا الثقافية ، لِما تركته من بصمات لا تنسى في حضارتنا. فمن هؤلاء نذكر: الطبري (-310هـ) المُؤرخ والمُفسر ، والبخاري (-256هـ) المُحَدث ، والفارابي (-339هـ) العالم والفيلسوف ، وعبد القاهر الجرجاني (-471هـ) البلاغي والناقد ، صاحب كتاب (دلائل الإعجاز) ، والقاضي الجرجاني (-392هـ) الناقد صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، وحنين بن اسحق (-264هـ) المترجم ، وابن العميد (-360هـ) الأديب والوزير ، والصاحب بن عباد (-385هـ) الأديب والوزير كذلك ، وابن سينا (-427هـ) الفيلسوف والوزير ، والخوارزمي (-232هـ) عالم الجبر ، وبديع الزمان (-398هـ) صاحب المقامات ، فهؤلاء وغيرهم يشكلون كمّا لا يستهان به في تنمية العربية وصناعة المعجمات اللغوية.

ومما يدهش أن ابن منظور في تأصيل معجمه " لسان العرب " اعتمد على مجموعة من المراجع التي كانت من نتاج هذه الفترة المليئة بالإنتاج العلمي والمعرفي في المجالات جميعا ، ومنها التأليف في المعاجم . فالأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (– 370 هـ) ، وكتابه : **تهذيب اللغة** ، والذي ذكره ابن منظور في مقدمة كتابه على أنه من المُصنفات المحمودة عنده ، وممن دفعه دفعا إلى تأليف كتابه ، وكذلك الجوهري إسماعيل بن حماد (– 393هـ) ، وكتابه **الصحاح** الذي قرّظه ابن منظور تقريظا كبيرا ، واعتمد منهج هذا المعجم أساسا لتأليف كتابه ومعجمه (لسان العرب) ، وكذلك ابن الأثير الجزري (– 606هـ) وكتابه : النهاية في غريب الحديث ، الذي أثنى عليه ، وعده مصدره الموثوق في جلال الأخبار التي طرز بها كتابه ، في مقدمته للسان ، هم من نتاج هذه الفترة المُلهمة للآخرين والتي دفعت ابن منظور إلى تأليف هذا المعجم الضخم .

وهذا غيض من فيض لأن العدد كبير كبير . ولقد أنجبت الأمة أجيالا كثيرة في حقب زمنية مُتباعدة لم يكن لها هم إلا حفظ هذه المؤلفات في المكتبات الكبرى ، في القاهرة وبغداد والأندلس والهند ، ومختلف أصقاع العالم الإسلامي . ثم تداولت الأجيال التالية لهذه الفترة ، حتى عصرنا هذا ، هذه الثروة المحبوسة في دور الكتب ، فلم تفلح في الاستفادة منها حتى يبقى زخم القوة العلمية الدافعة والمنتجة ممتدا إلى المستقبل ، وذلك لأسباب كثيرة ، منها السياسي والاجتماعي ، وغير ذلك من الأسباب التي تتداول في حياة الأمم ، وما زالت هذه الأحوال مسيطرة إلى حد ما في أيامنا هذه . ومن بَدَهيّات الحياة ، ونموها المطرد ، أن نفكر في جني الثمار وفي طريقة استنباتها معا ، فالتفكير في الاستمتاع بالثمار يؤدي إلى أن نكون مستهلكين فقط ، وأما التفكير في طريقة استنباتها فيجعلنا زارعين ومنتجين ما دامت هناك حركة وحياة ، والفرق كبير جدا بين الصورتين ، ومما يؤسف له أننا في العصور الحديثة مَرَنّا على الاستهلاك ، ولم يعد لدينا جِدّ الزارع والمنتج ، وهذا سلوك خطر ومعيب لنمو الأمة وتقدمها المستقبلي.

إن من الحكمة البالغة لمن يُعْنوْن بمصلحة اللغة العربية ، في أيامنا هذه ، دراسة فترة نضج الحضارة العربية الإسلامية الأنموذج دراسة متأنية لأخذ العبرة منها على المُستويات الفكرية والسياسية ، وكيف يُمكننا توظيف هذه العبر لمصلحة اللغة العربية على المستويات العلمية والفكرية والثقافية والسياسية ، كي يعود للعربية ألقُها واحترامُها في جميع البيئات الرسمية والعلمية والإجتماعية ، كما كان أمرها في تلك الفترة الذهبية. إن من البَدَهِي التأكيد على أن انتشار الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا في تلك الفترة كان المحرك الأكبر لجماهير غفيرة من غير العرب للإقبال على دراسة اللغة العربية ، والإلحاح في هذا الإقبال طواعية ، لأنهم رأوا في تعلم العربية والاجتهاد القوي في هذا التعلم ، عِبادة ترضي أشواقهم الدينية والفكرية ، وتحقق لهم رضا الله ، فكان للفرد الواحد منهم أن أنجز في خدمة الإسلام والعربية ما لا تنجزه أجيال في حِقب زمنية طويلة سيْطر عليها الضعفُ والوهنُ والجهل والظلام الدامس في كل مجال من مجالات الحياة.

وسيكون ابن منظور ، في هذه الدراسة ، نموذجا مُدهشا للعالم العربي الذي حمل هم العربية في قلبه وعقله ، فقدّم لها وللأمة مُعجما لا يُشق له غبار باعتراف الباحثين القدماء والمعاصرين ، حتى وصف بأنه أضخم معجم للغة العربية قديما وحديثا.

3) النشاط المُعجمي العربي قبل ابن منظور:

لم يكن اللغويون المعجميون أول من استخدم لفظ "معجم" بمعناه الاصطلاحي المعروف ، ولكن رجال الحديث النبوي الشريف هم أول من استخدم هذا اللفظ ، فأطلقوه على الكتاب المرتب هجائيا ليجمع أسماء الصحابة ورواة الحديث. ويبدو أن البخاري (– 256هـ) كان أول من استخدم هذا اللفظ وصفا لكتاب له رتبه على حروف المعجم ، ثم تبعه كتابا (معجم الصحابة) و (معجم الحديث) لعلي بن المثنى والبغوي على التوالي في القرن الرابع الهجري. ثم استقر اللفظ على المعنى المعجمي المتعارف عليه بعد حين من الدهر. وقد كان الجيل الأول من المُعجميّين الأوائل يختارون لمؤلفاتهم أسماء مُميزة بدون استعمال لفظ " معجم" كـ (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (-175هـ)، و(الجمهرة) لابن دريد (-321هـ) ، و(الصحاح) للجوهري (- 393هـ) .... وهكذا . ثم شاع استخدام هذا اللفظ بعد زمن في موضوعات غير اللغة كقولهم ، على سبيل المثال : معجم البلدان ، والمعجم المفهرس ، لاتفاقها في أسلوب جمع المادة وفق الترتيب الهجائي.

قبل ابن منظور كان للمعجم العربي رصيد كبير من المعاجم بنوعيها : معاجم للألفاظ ومعاجم للمعاني ، كما ورد سابقا في هذا البحث . وقد اعتمد ابن منظور ، كما يذكر في مقدمة كتابه ، في جمع مادة كتابه ، على خمسة مصادر أساسية من الكم المعجمي المؤلف الذي كان بين يديه هي:

1) تهذيب اللغة للأزهري (– 370 هـ) ،
2) والمحكم لابن سيده (– 458 هـ) ،
3) والصحاح للجوهري (– 393 هـ) ،
4) والجمهرة لابن دريد (– 321هـ) ،
5) والنهاية في غريب الحديث لأبي السعادات ابن الأثير الجزري (606 هـ).

4) حياة ابن منظور:

هو عبد الله مُحمد بن مكرم بن أبي الحسن علي بن أحمد الأنصاري الخزرجي من نسل الصحابيّ رُويفع بن ثابت الذي وَلي طرابلس إبان حكم معاوية بن أبي سفيان ، وغزا منها أفريقية سنة 47هـ. وقد ولد ابن منظور سنة 630هـ / (1232م) ، وتوفي سنة - 711هـ. وتتنازع ابن منظور ثلاثة أقطار عربية هي : مصر وتونس وطرابلس الليبية. وقد عمل ابن منظور قاضيا في طرابلس مدة طويلة من الزمن ، وهذا سر ذهاب بعضهم إلى أنه من طرابلس. ويذهب الدكتور أحمد مختار عمر إلى أن الأرْجح والأقرب إلى الصواب اعتباره مصريا ، كما ورد عنه في كتب التراجم حيث وُصِف بالأفريقي المصري. ثم يتابع الدكتور كلامه ، في هذا الموضوع ، فيقترح عدم نسبته إلى مكان بعينه لكثرة أسفاره وتنقلاته وفق ما درج عليه العلماء في ذلك العصر . (د. أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، ص 164).

وقد ورد ذكر ابن منظور ومعجمه (لسان العرب) في كتاب الدكتور شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي (7) عصر الدول والإمارات : مصر ، ص 114) وعدّه من علماء مصر ، ومن أشهر العلماء الذين كانت لهم باع طويلة في ازدهار النشاط اللغوي في مصر طوال القرن السابع الهجري زمن الأيوبيين والمماليك.

وممن ترجم له من القدماء الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حَجَر العسقلاني في كتابه " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " في حرف الميم. وقد أورد له شعرا كقوله :

بالله إن جـــــزت بوادي الأراك وقبّلتْ عيدانُه الخضر فاك

فابعث ، إلى عبدك ، من بعضها فإنني ، والله ، ما لي سواك

ومما ذكره ابن حجر عنه أنه كان مُغرما باختصار كتب الأدب المطوّلة. ومما ذكره الصفدي عنه قوله : " لا أعرف في كتب الأدب شيئا إلا وقد اختصره...". وقد ورد عنه في الموسوعة العربية العالمية (المجلد 24 ، حرف الميم ، ص 275 – 276) : (... كان صبورا مُتواضعا مُعتدلا في تدينه ، لطيفا في مَعْشره ، مُكرما لذوي العلم والتقوى وأصحاب الحكمة... وله كتاب آخر اسمه (أخبار أبي نواس)... ويعود الفضل في طواعية نثره وجماله لوظيفتي الإنشاء والقضاء اللتين شغلهما مُعظم حياته. فكلا الوظيفتين تتطلب عُمْقا في الثقافة ، ومِراسا في الكتابة... أما شِعْرُه فعلى قلة ما ورد منه يدل على قريحة جيدة ولغة عذبة رقيقة ... أما مختصراته فأهمها : مختصر كتاب الأغاني الذي سماه (مختار الأغاني في الأخبار والتهاني) ، ومختصر كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسّام الأندلسي ، وسمّاه : (لطائف الذخيرة) . ومختصر كتاب (فصل الخطاب) لأحمد بن يوسف التيفاشي ، وقد سماه (سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) . ومما اختصره كتاب : زهر الآداب وثمر الألباب للحُصْريّ القيرواني ، وكتاب : يتيمة الدهر للثعالبي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها).

وكذلك فعل الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه " بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة " فيمن اسمه محمد.

خدم في ديوان الإنشاء طَوال عمره ، وولي قضاء طرابلس الغرب. كان شغوفا باقتناء الكتب المُطوّلة واختصارها كالأغاني والعقد والذخيرة وقد بلغت مقتنياته منها خمسمائة مجلد. وكان

صَدْرا رئيسا ، فاضلا في الأدب ، مليح الإنشاء ، وعارفا بالنحو واللغة والتاريخ . ويُروى أنه كبرت سِنه وعَمي ، وكان عنده تشيّع بلا رفض ، والله أعلم .

ولعلّ ، في ما سردناه عن حياة الرجل ، وعن أعماله العلمية والوظيفية ، ما يشهد له بالعلم الرصين والعمل المُخلص ، ويدل دلالة محسوسة على أنه كان عالما كبيرا وعاملا مخلصا ، وبانيا ممتازا لحضارة هذه الأمة العظيمة . إنه يستأهل وأمثاله أن يكتب عنه الكثير من الأبحاث والدراسات لنجسد في عقول أبنائنا وطلبتنا نماذج حيّة مُؤثرة مُمْتازة في الحياة العلمية والعملية ليكونوا قدوة لهم في إعادة بناء هذه الأمة ، وبناء أبنائها الطامحين ، ليعود مجدها التليد الذي سطره أمثال هؤلاء العلماء العُظماء في صفحات تاريخ مجدها العريق .

5) معجم لسان العرب :

سيتضمن الحديث عن هذا المعجم الذي طبعته دار الفكر في خمسة عشر مجلدا قضايا متصلة بمادة المعجم نفسه. وهذه القضايا هي:

أولا: مُقدمة المُعجم :

ففي هذه المقدمة بسط ، بقوة ، أسباب تأليفه هذا المعجم ، والكتب التي أفاد منها في تأليفه ، بأسلوب جميل ، ولغة قوية ، وبروح ناقدة وصريحة . وقد أبدى إعجابه بكتابين من كتب اللغة هما : تهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سِيدَه الأندلسي . وهما ، وفق قوله : من أمّهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما ، بالنسبة إليهما ، ثنيّات الطريق . ولأن كلا من هذين الكتابين مطلب عسر المَهْلك ومنهل وعر المَسْلك ، وكأن واضع كل منهما ، كما يقول ، شرع للناس مَوْردا عذبا وجلاهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مَرْبعا ومنعهم منه. وليس لذلك سبب ، كما يقول ، إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب . ولهذا عزف عن اتباع منهجيهما في تأليف كتابه.

وقد رأى ابن منظور أن أبا نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري في كتابه (الصِّحاح) قد أحسن ترتيب مُختصره بسهولة وضعه ، فخف على الناس فتناولوه ، وقرُب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه ، غير أنه في جو اللغة كالذرّة ، وفي بحرها كالقطرة ، وإن كان في نحْرها كالدُرّة ، وهو مع ذلك قد صحّف وحرّف . فاستخار الله في جمع هذا الكتاب المبارك ، أي كتاب (لسان العرب) ، ولم يخرج فيه عمّا في هذه الأصول ، ورتبه ترتيب (الصحاح) في الأبواب والفصول . ثم يُتابع ابن منظور كلامَه فيقول : وقصدت توشيحه ، أي كتابه الذي سيؤلفه ، بجليل الأخبار ، وجميل الآثار ، مُضافا إلى ما فيه من آيات القرآن الكريم ، والكلام على معجزات الذكر الحكيم ، ليتحَلى بترصيع دُرَرها عِقدُه ، ويكون على مدار الآيات والأخبار والآثار والأمثال والأشعار حَلُّه وعَقدُه ... فجاء هذا الكتابُ (أي لسان العرب) ، بحمد الله ، واضح المَنْهج سَهْل السلوك ، آمِنا بمنة الله مِن أن يصْبح مثل غيره ، وهو مطروح متروك . ثمّ يُتابع : عظم نفعه بما اشتمل ، من العلوم ، عليه ، وغني بما فيه عن غيره وافتقر غيرُه إليه ، وجمع من اللغات والشواهد والأدِلة ، ما لم يجمع مِثلُه مِثلَه. . . وصار كتابُه هكذا لأن غيره : صارت الفوائد في كتبهم مُفرّقة ، وسارت أنجمُ الفضائلِ في أفلاكها : هذه مُغرِّبة وهذه مُشرِّقة... ثم يَسْتطرد في ذكر محاسن كتابه ، فيقول : ... فجَمعْت منها في هذا الكتاب ما تفرَّق ، وقرنت بين ما غرّب منها وما شرّق ، فانتظم شملُ تلك الأصول

كلها في هذا المجموع ، وصار هذا بمنزلة الأصل ، وأولئك بمنزلة الفروع ، فجاء بحمد الله وفق البُغية وفوْق المُنية ، بديعَ الإتقان ، صحيحَ الأرْكان ، سليما من لفظة لو كان .

ثم يعود إلى تواضعه فيقول : وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمُت بها ، ولا وسيلة أتمسّك بسببها ، سوى أني جمعْتُ فيه ما تفرّق في تلك الكتب من العلوم ، وبسطت القول فيه ، ولم أشبع باليسير . ثم يستطرد المؤلف ليقول : فمن وقف فيه على صواب أو زلل ، أو صحة أو خلل ، فعُهدته على المُصنف الأول ، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المُعوّل... والناقل عنه يمدّ باعَه ويُطلق لسانه ، ويتنوع في نقله عنه لأنه ينقل عن خِزانة . واللهَ تعالى يشكرُ ما له بإلهام جمعه من مِنّة ، ويجعل بينه وبين مُحَرّفي كلمه عن مواضعه واقية وجُنّة . وهو المسؤول أن يعاملني فيه بالنيّة التي جمعته لأجْلها ، فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسُّنة النبوية ، ولأن العالِم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النيّة اللسانَ ، ويخالف فيه اللسانُ النيّة ، وذلك لِما رأيته قد غلب ، في هذا الأوان ، من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يُعدّ لحنا مردوداً ، وصار النطق بالعربيّة من المَعايب معدودا . وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا في غير اللغة العربية ، فجمعتُ هذا الكتابَ في زمنٍ أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوحٌ الفلك وقومُه منه يسخرون ، وسمّيْتُه **لسان العرب**.

ثم يَختم مقدمته بهذا الدُّعاء الجميل حيث يقول : وأرجو من كرم الله تعالى أن يرفع قدْرَ هذا الكتاب وينفع بعلومه الزاخرة ، ويصل النفع به بتناقل العلماء له في الدّنيا ، وينطق أهل الجنة به في الآخرة ، وأن يكون من الثلاث التي ينقطع عمل ابن آدم إذا مات إلا منها ، وأن أنال به الدرجات بعد الوفاة بانتفاع كل من عمل بعلومه أو نقل عنها ، وأن يجْعل تأليفه خالصا لوجهه الجليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقد تحقق لمؤلف الكتاب هذا الدعاءُ فنحن نشهد ، كما شهد العلماء ، مثل الدكتور شوقي ضيف في كتابه الذي ورد ذكره ، قبل صفحات ، في هذه الدراسة ، حيث يقول : " وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوّج بكتاب " لسان العرب " لابن منظور ... وهو أكبر معجم لغويّ عربيّ ظهر في الأزمنة الماضية... وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة... ". (شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي 7 " عصر الدول والإمارات : مصر" ص : 114)

فهذه شهادة ـ من عالم وباحث ألمعيّ مُعاصر ، وهو الدكتور شوقي ضيف ، الذي أفتخر بالتلمذة على يديه ـ ترفع من قدر هذا الكتاب وقيمته اللغوية والعلمية بعامة ، وتشهد له بالامتياز الذي لم ينل غيرُه مِثلَه.

كما تحقق هذا الدعاء بشهادة أستاذ آخر هو الدكتور أحمد مختار عمر في كتابه : (البحث اللغوي عند العرب) ، وهو لغوي يشهد له بالبحث الرصين ، حيث يقول عن ابن منظور ومعجمه : "... يُعد " لسان العرب " من أضخم المُعجمات العربيّة _ إن لم يكن أضخمها _ على الإطلاق ". (البحث اللغوي عند العرب ص 164).

ثانيا : وصف ابن منظور لأصوات العربية :

لم يقصد ابنُ منظورٍ في كلامه عن حُروف العربية وصفها أو تفسيرها وفق الصفات والمخارج ، ولكنه قصد ، كما قال هو في مدخل اللسان ، إلى البركة فقط . يقول : " ... إلا أن الأزهري ذكر ، في أواخر كتابه ، فصْلا جمع فيه تفسير الحروف المُقطعة التي وردت في أوائل سور القرآن العزيز ، لأنّها يُنطق بها مُفرّقة غير مؤلفة ولا مُنتَظمة ... وقد استخرت الله تعالى وقدّمتها في صدر كتابي لفائدتين : أهمهما مُقدّمهما ، وهو التبرك بتفسير كلام الله تعالى الخاص به الذي لم يشاركه أحد فيه إلا من تبرك بالنطق به في تلاوته ، ولا يعلم معناه إلا هو ، فاخترت الابتداء به لهذه البركة ، قبل الخوْض في كلام الناس ، والثانية أنها إذا كانت في أول الكتاب كانت أقرب إلى كل مُطالِع من آخره ، لأنّ العادة أن يُطالع أول الكتاب ليكشف منه ترتيبه وغرض مُصنفه ، وقد لا يتهيأ للمُطالع أن يكشف آخره...فلهذا قدمْته في أول الكتاب ".(مقدمة اللسان ، ص 9).

وقد انتقل من حديثه السابق إلى باب سمّاه " باب تفسير الحروف المقطعة " فجمع فيه أقوال الصحابة عن هذا الباب كابن عباس الذي أورد له في تفسيرها ثلاثة أقوال : أولها أن معناها القسم أي أن هذا الكتاب الذي أنزل على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، هو الكتاب الذي من عند الله ، عز وجل ، لا شك فيه ، كما ورد في القرآن الكريم : (ألم (1) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (2)) (سورة البقرة) ، وثانيها أنها من أسماء الرحمن مقطعة في اللفظ ، وثالثها أن معنى قوله تعالى : ألم ذلك الكتاب : أنا الله أعلم وأرى.

ثم يورد مجموعة من الآراء في تفسير هذه الحروف المُقطعة لعَدَدٍ من العلماء منهم : عكرمة وقتادة وعامر وأبو بكر بن مريم وأبو العالية وعيسى بن عمر والأخفش وسعيد بن جُبير وقطرُب وأبو إسحق الزجاج . ثم انتقل إلى إعراب هذه الحروف وشرحها وتفسيرها وبسط في هذا الموضع آراء النحويين ، ثم انتقل إلى باب ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها فبسط فيه المعاني المنتفع بها من قواها وطبائعها وتأثيراتها كأن تتخذ الحروف اليابسة وتجمع متوالياً فتكون متقوية لِما يراد فيه تقوية الحياة الغريزية ، أو لِما يراد دفعه من آثار الأمراض الباردة الرطبة ، فيكتبها ، أو يُرقى بها ، أو يسقيها لصاحب الحمّى البَلغَميّة والمفلوج والمَلوُوق . إلى أن يقول : وأما أعمالها في الطلسمات فإن لله ...فيها سِرّا عَجيبا ، وصُنعا جميلا ، شاهدنا صِحّة أخبارها ، وجميلَ آثارها (مقدمة اللسان ص 15). وقد أورد حديثا طويلا في هذا الباب توقفت عن الخوض فيه ، لأنه أقرب إلى طابع السحر ، لا إلى العلم الواضح ، ولستُ مِمّن له دِراية أو علم في هذا الباب . ولقد عجبت من ابن منظور ، وهو عالم لغوي كبير ، وقد شهد له من كتب عنه أنه صاحب علم في اللغة والأدب والشعر ، وقد اشتغل في القضاء ، فهو ذو خبرة ودراية في الحياة ، عجبت منه كيف يتوقفُ عند هذا الأمر الذي يبتعد عن العلم الطبيعي المحسوس ، والله أعلم به.

ثالثا : أسلوب المعجم في عرض مادته :

ليس هناك ما يميز معجم ابن منظور عن غيره من المعاجم التي اتبعت أسلوب الباب والفصل سوى توسعه في حشد الشواهد والنصوص الموسّعة في الأدلة والأمثلة. وهو نفسه ذكر في المُقدمة ما نصُّه : " شرْطنا في هذا الكتاب المُبارك أن نرتبه كما رتب الجوهري صِحاحَه ، وقد قمنا ، والمنة لله ، بما شرطناه فيه ". (مقدمة المعجم ص 9)

أول من نبه على هذا النظام المُعجمي الذي وظفه ابن منظور في معجم " لسان العرب " ، والمعروف بنظام القافية هو الفيلسوف الشهير الفارابي في كتابه " ديوان الأدب ". ثم كان بعد حين مُعجم " الصِّحاح " للجوهري الذي بناه على طريقة الباب والفصل ، فالباب هو الحرف الأخير من المادة اللغوية ، أي توضع الجذور المنتهية بحرف ما ، في باب واحد ، كأن نقول مثلا : باب السين أو باب الجيم ، من الثلاثي أولا ، ثم من الرباعي ، مرتبة من بداية الباب إلى آخره وفق الترتيب الألفبائي . فمثلا المفردات الثلاثية والرباعية المنتهية بالسين توضع في باب واحد هو باب السين ، ثم تقسم إلى فصول وفق حرفها الأول ، فالفصل هو الحرف الأول منها . فالمادة اللغوية " نجح " من باب الحاء وفصل النون ، لأن آخر المادة حاء ، وأولَها النون . وقد أعجب ابن منظور بالصِّحاح وطريقته وخِفته ، ولكنه وصف هذا الجهد بأنه " ... في جو اللغة كالذرّة ، وفي بحرها كالقطرة ..." فأراد ابن منظور أن يؤلف كتابا أو معجما على منهج الجوهري بتوسع في النصوص والشرح ، فكان لما أراد مُعْجمُ :" لسان العرب".

6) الخاتمة:

أمّا بعْدُ، فقد اتضحت لنا ، بعد هذا العرض المُوجز، قيمة مُعْجم " لسان العرب " وما امتاز به من ضخامة وتوسع ، واتضحت لنا المَرامي التي كان يطمح إليها المؤلف ، ابن منظور ، في تأكيد المَدرسة المُعْجميّة التي اتبعها الجوْهريّ في صِحاحِه . ويتضح لكل مَنْ يقرأ هذا المعجم بأن الجهد الذي بذله ابنُ مَنْظورٍ فيه تنوءُ به الجَماعة أولو القوّة ، كما ورد عن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف (رحمه الله) ، وكما ذكرنا هذا في مَوْطنٍ سابقٍ من هذا البحْث . ولقد أعطت طباعته ، وأعطى نشره ، على نطاق واسع ، لهذا المُعجم شهرة تفوّق بها على مُختلِف أنواع المَعاجم العربيّة السابقة له ، واللاحقة به . وأصبح صيته ذائعا بين المُتخصصين في اللغة العربية والشريعة الإسلامية والدراسات القرآنية ، وبين المَعْنِيّين باللغة العربية بعامة ، ولا يكادُ يزيد عليه في الشهرة بين كتب العربية إلا كتاب سيبويه (الكتاب) ، علما بأنهما من بابين مختلفين . ولقد طاب لي يوما أن أوازن بين مادة لسان العرب ، وبين مادة المنجد ، القاموس المشهور والمطبوع في لبنان ، على سبيل المثال ، وهو مُعجم عصْريّ معروف ، فوجدت تفصيلاته عن كثير من المواد اللغوية تتطابق مع شروح اللسان في مواده اللغوية حتى لكأنه ينقل عنه.

ولقد أصبح لديّ الآن ، بعد هذه الدراسة ، أنه لا ريْبَ في أن كتاب (لسان العرب) ذخيرة لغوية لا يَسْتغني عنها طلبة العلم أو الباحثون في مجال اللغة العربية ، أو في أي مجال يُكتب باللغة العربية . وإن حِيازة هذا المُعجم في المكتبات العامة والجامعيّة والمدرسية والبيتية ، زينة يُفتخر بها ، وضرورة لا يُستغنَى عنها.

ومن اللائق بنا أن ندعوَ لمؤلفه دُعاء يرفع قدرَه عند الله ، سُبْحانه وتعالى ، ونرجوه أن يغفر له ويصفحَ عن أخطائه ، إن كانت له زلات أو كان له أخطاء ، فالدارسُ لسيرته يكتشفُ أنه كان رجلا طيّب المَعْشر ، وصحيحَ التوجّهِ إلى الله ، وغَيُورا على اللغة العربية ، وعلى قرَّة عيْنِ الأمّة : القرآن الكريم والسنة المطهرة . اللهُمَّ إنا نسألك أنْ تغفرَ له غفرانا يُدْخِله الجنة . اللهم ادّخِرْ لنا بعضا من عَفوِك ومَغفرتك ، إنك سَميع مُجيب الدُّعاء.

7)المراجع :

1) أحمد مختار عمر (دكتور) ، **البحث اللغوي عند العرب** ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1396 هـ / 1976 م

2) الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد (– 370 هـ)، **تهذيب اللغة** ، تحقيق محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2001م

3) ابن تغري بردي (–874 هـ) ، **المنهل الصافي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1954 .

4) الجوهري ، إسماعيل بن حماد (– 393 هـ) **الصحاح** ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطا، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1987

5) ابن حجر العسقلاني الإمام الحافظ (–777 هـ) ، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ، حيدر آباد ، الهند ، ط 2 ، 1972

6) الخليل بن أحمد الفراهيدي (–175هـ) ، **العين** ، تحقيق المخزومي والسامرائي ، دار مكتبة الهلال، ؟ .

7) ابن دريد (- 321 هـ) أبو بكر محمد بن الحسن ، **جمهرة اللغة** ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1987

8) ابن سيده الأندلسي (– 458 هـ) ، **المحكم والمحيط الأعظم** ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1421هـ / 2000م

9) شكران خربوطلي (دكتور) ، **الحياة الفكرية في إقليم خراسان في ظل سلاطين العصر السلجوقي**، مجلة دراسات تاريخية ، العددان 117 و 118، كانون الثاني وحزيران 2012 ، ص ص 183– 208

10) شوقي ضيف (دكتور)، **تاريخ الأدب العربي، 7، عصر الدول والإمارات (مصر)** ، دار المعارف ، القاهرة ، 1990م

11) الصفدي ، صلاح الدين (–764 هـ) ، **الوافي بالوفيات** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، 2007

12) عبد الرحمن السيوطي الحافظ جلال الدين (–911هـ) ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** ، المجلد الأول ، ص248 ، دار الفكر ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، 1399هـ / 1979م

13) الفيروزابادي، طاهر مجد الدين محمد الشيرازي (–817 هـ) **القاموس المحيط** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 8 ، 2005 م

14) مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، **الموسوعة ا لعربية العالمية** ، المجلد 24 ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ص 275 .

15) محمد ثابت الفندي ، مُترْجِم **دائرة المعارف الإسلامية** ، المجلد الأول ، ص 285. وهو يحيل إلى بروكلمان في كتابه المشهور (تاريخ الأدب العربي) جزء 2 ص 21.

16) إبراهيم مصطفى وآخرون (مجمع اللغة العربية) ، **المعجم الوسيط** ، دار الدعوة ، استانبول ، 1392هـ /1972م.

17) ابن منظور، محمد بن مكرم (– 711هـ) ، **لسان العرب** ، دار الفكر ، دار صادر ، بيروت ، 1410هـ / 1990م